فقه التعبير القرآني

في ضوء مقامات القرب

دكتور / محمود توفيق محمد سعد

تمهيد : ـ

من المسلم به أن أسلوب القرآن الكريم قد شغل كثيرا من صفوة الخلق ، فأفرغوا وجودهم بغية ادراك شيء من سرائره التي لا تنفد ، وما تعددت المناهج في دراسة كتاب كما تعددت في دراسة القرآن الكريم ، وعلى الرغم من تعددها وسعيها الحثيث الى التكامل الا أن عجزها لم يكن كما كان أمام أسلوب القرآن الكريم ، مما يؤكد أنه ما أعجز الخلق كافة عن الاتيان بمثله أو سورة منه فحسب ، وانما هو يعجزهم أبدا عن الادراك المحيط بعطائه ، والكاشف عن أسراره • وما حظي منهج من هذه المناهج باهتمام صفوة العلماء وأجتماعهم عليه مثلما حظي المنهج البلاغي القائم على اليقين الواثق بأن السر الساري في كل عنصر من عناصر القرآن الكريم انما هو بلاغته وبيانه •

وأصحاب هذا المنهج البياني في تدبر القرآن الكريم ليسوا على درجة سواء في تمثل هذا المنهج تمثلا يتلاءم مع عالم الكلمة الالهية المعجزة ، بل ان كثيرا من أصحاب هذا المنهج لا يكادون يفرقون بين وسائل التأمل في الابداع الفني : شعرا أو نثرا أو غيرهما ، ووسائل تدبر وفقه الكلمة الالهية المعجزة •

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الرابع، مطبعة الأمانة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م

بمعنى ان الأسلوب فى عالم الابداع الأدبى يختلف باختلاف صاحبه ، ذلك أن الأسلوب « هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، وهذه الطريقة فضلا عن اختلافها فى الكتاب والشعراء تختلف فى الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذى يعالجه والموضوع الذى يكتبه ، والشخص الذى يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه » (١) ٠

وقديما أشار الفاقهون الى ذلك ، فعبد القاهر (٤٧١ هـ) رفض وجوها من النظر فى عالم الشعر هى نفسها فى عالم النثر مقبولة عنده.ذلك أنها فى عالم الشعر تفسده وتخرجه الى شىء مغسول والى كلام عامى مرذول (٢) ٠

وكذلك أشار البهاء السبكى (٧٧٣ هـ) الى أنه « ربما كان الشىء فصيحا فى الشعر غير فصيح فى النثر » (٣) ٠ وهى اشارات فاقهة قائمة على أن طبيعة الشعر غير طبيعة النثر وأن من فرق بينهما من حيث الوزن والقافية فحسب كان على ضلال مبين ٠

اذا كان هذا فى عالم الابداع الأدبى ، فكيف اذا ما كان العالم عالم الكلمة المعجزة ؟ أيستقيم فى عقل أن وسائل التأمل ومنهجه فى الكلمة الشاعرة أو فى الابداعات الفنية عامة صالحة وحدها ، وهى هى لتدبر وفقه

---

(١) دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات ص ٥٦ ٠ مطبعة الرسالة ١٩٤٥م وينظر النقد الأدبى لسيد قطب ص ٢٠ وما بعدها ، وقضايا النقد الأدبى لزكى العشماوى ص ١ وما بعدها ، والنقد الأدبى الحديث لغنيمى هلال ص ٣٥٦ ونظرية الأدب لاوستن وارين ورينيه ويليك ص ٢٠٥ وما بعدها ٠

(٢) دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٢٠٧ ٠ تصحيح المراغى

(٣) عروس الأفراح - للبهاء السبكى جـ ١ ص ٩٩ «شروح التلخيص»

كلمة الله المعجزة التى نزل بها الروح الأمين على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟

« ان نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتبيان مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم . وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد » (١) شعرا كان أو نثرا ، ذلك أن بلاغة البيان تعلو على قدر علو المبين « فعلو بيان الله على بيـان خلقه بقـدر علو الله على خلقه ، فبيان كل مبين على قـدر احاطة علمه » (٢) ، ومن ثم كان « للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه ، والمعهود من معانيه ، فان نسبة معانيه الى المعانى كنسبة ألفاظه الى الألفاظ بل أعظم ، فكما أن ألفاظه ملوك الالفاظ وأجلها وأفصحها ، ولها من الفصاحة أعلى مراتبهـا التى يعجز عنها قدر العالمين ، فكذلك معانيه أجل المعانى وأعظمها وأفخمها ، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعانى التى لا تليق به ، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم » (٣) ٠

لهذا فان الناقد قد يكون بصيرا بكل فنون الابداع الأدبى والفنى ، وعليما بمناهجه ، ومدركا لأسراره الا أنه يعجز عجزا بينا عن لمح شىء من سرائر التعبير القرآنى ، ذلك أنه « لا يجتمع فهم القرآن والاشتغال بالحطام

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٥ - تحقيق السيد احمد صـقر - دار المعارف ٠

(٢) مفتاح الباب المقفل لأبى الحسن الحرالى ق ٣ ب « مخطوط رقم ٥٦٧ تفسير تيمور ٠

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم ٢٧/٣ ، والتفسير القيم لابن القيم ص ٣٦٩ ٠

فى قلب مؤمن أبدا »(١) و « لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى حقيقة . ولا تظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة ، وفى قلبه بدعة ، أو اصرار على ذنب ، أو فى قلبه كبر أو هوى أو حب الدنيا ، أو يكون غير متحقق الايمان ، أوضعيف التحقيق ، و اعتمد على تفسير ليس عنده الا علم بظاهر ، أو يكون راجعا الى معقوله ، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض » (٢) .

بل انه « اذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التى لا تنفع لم يبق فيها موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه . وسر ذلك أن اصغاء القلب كاصغاء الأذن ، فاذا أصغى الى غير حديث الله لم يبق فيه اصغاء ، ولا فهم لحديثه ، كما اذا مال الى غير محبة الله لم يبق فيه ميل الى محبته ، فاذا نطق القلب بغير ذكره لم يبق فيه محل للنطق بذكره كاللسان ، ولهذا فى الصحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا » (٣) فبين أن الجوف يمتلىء بالشعر » فكذلك يمتلىء بالشبه والشكوك والخيالات والتقديرات التى لا وجود لها والعلوم التى لا تنفع والمفاكهات والحكايات نحوها ،. واذا امتلأ القلب بذلك جاءته حقائق القرآن والعلم الذى به كماله وسعادته ، فلم تجد فيه فراغا لها ولا قبولا ، فتعدته وجاوزته

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٦/١ « طبعة ثانية - بيروت »
(٢) المرجع السابق ١٥٤/٢
(٣) الحديث رواه البخارى فى صحيحه : كتاب الأدب - باب مايكره أن يكون الغالب على الانسان الشعر ، وانظر مناقشة الحديث فى كتاب : ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى للعسقلانى ٩٥/٩ ، وفى كتاب : الاجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة لبدر الدين الزركشى ص ٦٧ تحقيق سعيد الأفغانى ط دمشق ١٩٣٩ م .

الى محل سواه ، كما اذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها لا منفذ لها فيه ، فانه لا يقبلها ولا تلج فيه ، لكن تمر مجتازة لا مستوطنة ٠٠ » (١) ٠

لهذا كله وكثير غيره أذهب الى أن فهم بيان القرآن الكريم لا يكفى فيه ما أقامه علماء الابداع الأدبى والفنى من قواعد ومعارف « فان للقرآن علوا من الخطاب يعلو على قوانين العلوم علو كلام الله على كلام خلقه » (٢) ، فعلينا أن نسعى الى تحصيل وسائل التأمل لفهم القرآن الكريم بجانب تحصيل وسائل التأمل فى علوم اللسان الذى نزله به ٠ « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » (الشعراء / ١٩٢ ــ ١٩٥) ٠

وأول وسائل التأمل لفهم القرآن الكريم هو صفاء القلب ، ومن أراده « فليؤثر الله على شهواته ٠ القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها » (٣) والذين ضلوا السبيل القويم الى فهم القرآن هم الذين « شغلوا قلوبهم بالدنيا ، ولو شغلوها بالله ، والدار بالآخرة لجالت فى معانى كلامه وآياته المشهودة ، ورجعت الى أصحابها بغرائب الحكم ، وطرف الفوائد ، اذا غذى القلب بالتذكر ، وسقى بالتفكر ، ونقى من الدغم ، رأى العجائب ، وألهم الحكمة » (٤) ٠

بهذا يرتقى المرء الى مستوى الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وذلك الفهم فى حقيقته نور يقذفه الله فى قلب العبد « يعرف به ، ويدرك ما لا يدركه غيره . ولا يعرفه ، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره

---

(١) الفوائد لابن القيم ص ٣١ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ مصر
(٢) مفتاح الباب المقفل للحرالى ق ٣ أ « مخطوط »
(٣) الفوائد لابن القيم ص ٩٧
(٤) الموضع السابق نفسه

مع استوائهما فى حفظه ، وفهم أصل معناه ، فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تتفاوت مراتب العلماء حتى عد ألف بواحد » (١) .

ذلك ما أومن به طريقا وزادا الى الادراك الجمالى لأسلوب القرآن الكريم فى صحبة الفقه والتمثل الجيد لعلوم اللغة وغيرها ، بحيث يصبح الادراك الجيد لعلوم اللغة وسيلة وليس غاية ، بل وليس هو الوسيلة الفذة لفهم القرآن الكريم ، فان ذلك لا يكون ، فعلينا ان أردنا الرشاد الا يقل حرصنا على اتخاذ حسن العلاقة بالله وسيلة للفهم عن حرصنا على اتقان علوم اللغة وغيرها ، فتعانقهما فى عقل وقلب المتدبر ذو أثر قوى وواضح فى فهم القرآن الكريم وذلك ما تحاول هذه الدراسة جاهدة - بعون الله تعالى - أن تضع أقدامها على طريقه الطويل ، ومرتقاه الوعر .

وهى دراســـة ذات منهج يعتمد على محاولة لمح بعض جمال التعبير القرآنى من خلال ملاحظة درجات من يكون السياق القرآنى لهم فى مقامات الطاعة والقرب من الله عز وعلا (٢) ، ذلك ان الســـائرين الى الله تعالى ليسوا على درجة سواء فى قربهم منه عز وعلا « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم » (يوسف/٧٦) .

---

(١) التفســير القيم لابن القيم ص ٤١ ، تحقيق محمد حامد الفقى طبعة السنة المحمدية

(٢) أريد بالقرب هنا ما عبر عنه الامام الاصفهانى قائلا :

« وقرب العبد من الله فى الحقيقة التخصص بكثير من الصفات التى يصح أن يوصف الله تعالى بها ، وان لم يكن وصف الانسان بها على الحد الذى يوصف به تعالى .. وذلك يكون بازالة الاوساخ من الجهل والطيش والغضب والحاجة البدنية بقدر طاقة البشر وذلك قرب روحانى لابدنى » راجع المفردات فى غريب القرآن للاصفهانى مادة (قرب) .

« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » (الاسراء / ٢١) .

واذا كان فقهاء البلاغة والنقد يشددون على ألا نكلم السوقة بكلام الملوك ، والملوك بكلام السوقة ، فان الفرق لجد جلى فى حديث القرآن الكريم عن الطائعين لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وحديثه عن غير التابعين ، لكن أيطرد التفريق فى صياغة الأسلوب حين يختلف مستوى القرب من الحق عز وعلا بين من يتحدث عنهم أو معهم من الطائعين ؟ ذلك أمر لا تستطيع هذه الدراسة الموجزة أن تقدم القول الفصل فيه . لكنها تحاول - مستعينة بالله عز وعلا - أن تقدم صورا من المفارقات التعبيرية فى القرآن ، وتتدبرها فى ضوء ملاحظة درجة القرب من الحق عز وعلا لمن يتحدث عنهم أو معهم القرآن الكريم .

واذا أردنا الوقوف على درجات القرب وترتيبها فان خير معين على ذلك الهادى البشير - صلى الله عليه وسلم - حيث يجيب عما سأله عنه الروح الأمين : جبريل عليه السلام - قائلا له :

« يامحمد أخبرنى عن الاسلام . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان . وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا .

قال : صدقت . قال (اى الراوى) فعجبنا : يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الايمان . قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال صدقت .

قال : فأخبرني عن الاحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه ، فانه يراك .. » متفق عليه ، واللفظ لمسلم (١)

وحيث يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد ان يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس » رواه ابن ماجة والترمذي واللفظ لابن ماجة (٢) .

من خلال هذا نستطيع أن نرتب مقامات القرب ترتيبا تصاعديا على هذا النحو : « الاسلام - الايمان - التقوى - الاحسان » ولكل مقام مستويان : أدنى وأعلى . المستوى الأدنى يعبر القرآن الكريم عن أصحابه باسم الموصول ذي الصلة الفعلية ، والمستوى الأعلى يعبر القرآن الكريم عن أصحابه بأل الموصولة وصلتها على نحو قوله « الذين آمنوا » . « المؤمنون » « الذين اتقوا » ، « المتقون » .. الخ

والفرق بين العبارة عن المستوى الأدنى والمستوى الأعلى فى كل مقام « أن الفعل يقتضى مزاولة وتجدد الصفة فى الوقت ، ويقتضى الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا »(٣) ولاريب فى أن ما كان ثابتا مستقرا فى مقام الطاعة أدل على

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الايمان - باب سؤال جبريل ، وصحيح مسلم : كتاب الايمان باب بيان الايمان والاسلام والاحسان .

(٢) سنن ابن ماجة : كتاب الزهد ، حديث رقم ٤٢١٥ ج ٢ ص ١٤٠٩ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، والترمذي : كتاب القيامة ، وينظر صحيح البخاري كتاب الايمان : باب بنى الاسلام على خمس ، فقد نقل حديثا عن ابن عمر بمعناه وراجع شرح ابن حجر العسقلاني لصحيح البخاري الباب الأول من كتاب الايمان ٤٨/١ طبعة ١٣٧٩ هـ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٤ . وينظر المطول للسعد وعليه حاشية السيد الشريف ص ١٥٠ - ١٥١ وعروس الأفراح ومواهب الفتاح ٢/٢٦ - ٣١ (شروح التلخيص)

المدح مما كان غير مستقر فالمؤمنون مثلا هم « الذين صار الايمان وصفا ثابتا فى قلوبهم ، الموحدون ، المتبرؤن من الحول والقوة ، المتحققون لمضاء أقدار الله عليهم بما شاء لا بما يشاءون « الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا . وعلى ربهم يتوكلون (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) أولئك هم المؤمنون حقا » • (الانفال / ٢ ـ ٤) •

واما الذين آمنوا فهم الذين يثبتون على حال ايمانهم ، ولكن تارة وتارة ، ولذلك هم المنادون المنهيون ، والمأمورون فى جميع القرآن الذين تكرر عليهم النداء فى السورة الواحدة مرات عديد » (١) •

فى ضوء هذا أحاول ـ بعون الله ـ التدبر الجمالى الممتع للعقل والقلب والروح معا • وعلى الله قصد السبيل •

فقه النداء والتقديم والأمر والرجاء

اذا ما استقصينا القرآن الكريم كله لا نجد من عبر عنهم القرآن الكريم بلفظ « المؤمنين » قد نودوا الا مرة واحدة ، بينما الذين عبر عنهم بلفظ « الذين آمنوا » قد تكرر نداؤهم فيه ، وأردف فى الغالب بأمرهم أو نهيهم . بل ان النداء الفرد للمؤمنين قد جاء على نهج تعبيرى يختلف عن نهج نداء الذين آمنوا •

بيانه : ان الحق عز وعلا يقول : « ••• وتوبوا الى الله جميعا أيها

---

(١) عروة المفتاح لابى الحسن الحرالى ق ٤ ب « مخطوط » رقم ٥٦٧ تفسير تيمور •

المؤمنون لعلكم تفلحون » (النور ٣١) ويقول : « ياأيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ... » (التحريم ٨) .

النظرة المتدبرة ترى أن نداء المؤمنين جاء بغير أداة نداء ، كذلك ترى ان نداء المؤمنين تقدم عليه الأمر بالتوبة . على غير المعهود عند اجتماع نداء وأمر أو نهى ، كذلك ترى أن الأمر بالتوبة للمؤمنين قيد بقوالله جميعا ، ثم أردف ذلك كله برجاء كانت أداته « لعل » بينما نداء الذين آمنوا ذكر فيه أداة النداء (يا) وقدم النداء على الأمر بالتوبة كما هو شأن اجتماعهما وقيدت التوبة بقوله « توبة نصوحا » وهو قيد مغاير لقيدها مع المؤمنين ، ثم أردف ذلك كله برجاء كانت أداته « عسى » .

هذه فروق تعبيرية ، لاريب فى أن فى كل معانى وأسرارا ولطائف لا تنفد ولا تخلق على كثرة الرد . فلنحاول لمح شيء من ذلك فى ضوء ملاحظة طبيعة المنادى فى كل ، ودرجته فى مقامات القرب .

لما كانت آية سورة النور فى سياق خطاب من كان فى المستوى الاعلى من مقام الايمان « المؤمنون » ومثلهم - كما سبقت الاشارة - فى مقام الانعتاق من ربقة الغفلة ، فلم يكونوا بحاجة الى ايقاظهم بياء البعد . فلما تجلى الحق بندائهم كان نداء تشريف يؤكد سموهم واقترابهم وانعتاقهم ، ومن كان كذلك لم يكن بحاجة الى ما أريد أمره أو نهيه أن يوقظ أولا ، وينتشل من الدرك الأسفل ، بل يؤمر مباشرة . فانه متلقيه بقلب يقظ . ومن ثم ترى التفاعل بين عطاء تقديم الأمر على النداء . وعطاء حذف ياء البعد فكلاهما أكد سموهم واقترابهم وانعتاقهم من دياجير الغفلة .

أما الذين آمنوا فلما كان ايمانهم ما يزال فعلا من أفعالهم ، ولما يصر بعد صفة فيهم ، فما يثبتون على حال ايمانهم وكانوا تحت سلطان الغفلة

كان نداؤهم دائما بياء البعد ، مع تقديمه على أمرهم أو نهيهم كي يقرعوا بياء البعد أولا ثم يؤمروا فيقع الأمر وقد أفاقوا من سكرة الغفلة ، ولو أنه فعل معهم كما فعـــل مع المؤمنين ، فقدم الأمر على ندائهم لجـــاء الأمر وقلوبهم فى قبضة الغفلة ، فلا يؤتى الأمر أكله ٠

واذا نظرنا الأمر فى كل ألفيناه فى آية النور أمرا بتوبة مقيدة بقوله « جميعا » وهو قيد يدل على أن المطلوب ايقاع التوبة على وجه الاجتمـــاع ، فلو أوقعها كل مؤمن منفردا لما تحققت طاعة الأمر ، فان استخدام هذا اللفظ فى القرآن الكريم يدور مع هذا المعنى « وبرزوا لله جميعا » (ابراهيم ٢١) « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا » (النور ٦١) « فسـجد الملائكة كلهم أجمعون » (ص ٧٣) فهو ما صرح فى توبة المؤمنين بشرط أن تكون نصـــوحا ، وانما صرح بأن تكون توبة على ســـبيل اجتماعهم عند ايقاعها ٠ اشارة الى أمرين :

- ان توبة المؤمنين فى حقيقتها لا تكون الا نصـــوحا خالصة من كل شوب فذلك روح توبتهم ٠

- ان أمرهم بها أمر تشريف وارتقاء ، ومن ثم طلب الاجتماع عليهـــا ليكون عطاؤها أسمى وأوفر شأن ما يشترط الاسلام الاجتماع فى ايقاعه زمانا ومكانا كالجمعة والحج ٠٠ والنظـــر فى صـــدر آية النور يؤكد ما ذهبت اليه ، وكذلك النظر فى الرجاء الذى جاء فى عجزها ، وفى عجز آية التحريم ، وملاحظة الفرق بينهما ٠

أما توبة الذين آمنوا فقد قيد التوبة فى أمرهم بأن تكون توبة نصوحا والدلالة اللغوية لمادة « نصح » هى الخلوص : يقال : رجل ناصح الجيب لا غش فيه ، الناصح : العسل الخالص وأرض منصوحة : مجردة متصلة النبات » (١) ٠

---

(١) ينظر القاموس المحيط « فصل النون ٠ باب الحاء » ٠

ومن ثم كانت التوبة النصوح هى « الصادقة أو لا يرجع الى ما تاب عنه أو لا ينـــوى الرجوع » كما يقـــول الفيروزبادى (٨٦٧ هـ) وأعلى مراتبها : « أن لا يبقى على عمل التائب أثر المعصية سرا وجهرا (١) ، فاذا لاحظنا أن الموصـــوف « التوبة » مؤنث ، وصـــفته « مذكر » على وزن « فعول » • وهذه الصيغة « فعول » مراد بها معنى « مفعول » لا « فاعل » لأن الموصوف هنا غير عاقل فلا ينسب اليه على معنى « فاعل » على سـبيل الحقيقة : وتذكير صفة المؤنث من غير حمل خاص بفعول المفهم معنى فاعل فيقال : رجل وامرأة صبور • وما هنا فعول بمعنى مفعول (٢) •

التذكير هنا يشير الى أن المراد قوة الصفة فى الموصوف كما سيأتى تبيانه مفصلا فى آخر هذه الدراسة ان شاء الله تعالى •

هذا القيد وصياغة الصفة فيه على التذكير يشير الى أن الأمر هنا أمر بايقاع توبة على نهج خاص : توبة خالصـة من كل شـــوب ، وقوية فى خلوصها وصفائها ، والتصريح بهذا القيد يشير الى أن ما يقع من الذين آمنوا من توبة لا يتســـم به ، ومن ثم صرح باشتراطه فيها • وهو قيد يتلاءم مع طبيعة المنادى المأمور المعبر عنه هنا بالذين آمنوا ، ويتلاءم مع درجته فى مقام الطاعة والقرب - على نحو ما ســبق تبيانه - كما تلاءم تقديم ندائهم عليه مع ذكر ياء البعد فيه •

أما الرجاء فانه قد جاء فى آية النور بلعل ، وكان الخبر فعلا مضارعا دالا على الاستمرار التجددى ، وفقا لاشتماله على الزمان الذى من شـأنه

---

(١) التعريف للسيد الشريف ص ٦٣ طبعة سنة ١٣٥٧ هـ •

(٢) الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى جـ ٣ ص ١٣٨ تحقيق طه عبد الرؤوف •

التغيير فى مفهوم الفعل المؤذن باعتبار التجدد فى الحدث (١) .

وفى آية التحريم كان الرجاء بعسى التى يكون خبرها فعلا مضارعا مسبوقا بأن المصدرية . ولعل من وراء ذلك معانى وأسرارا تبرز فى الفرق بين الرجاء بلعل والرجاء بعسى (٢) .

أساس الفرق بينهما - عندى كبلاغى - طبيعة كل من الأداتين ، بمعنى أن « لعل » حرف ، وشأن الحروف الجمود ، وقد جاءت على أصلها من الجمود وجاء خبرها فى القرآن الكريم اسما مشتقا « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » (الشعراء ٣) .

وجاء خبرها فعلا صريحا ، وهو الأكثر ، ولم يرد فى القرآن الكريم فعلا مضارعا مسبوقا بأن المصدرية .

أما « عسى » فهى فعل . وشأن الأفعال التصرف ، غير أن « عسى » قد خرجت عن طبيعة الفعل بالجمود ، ومن شأن لغة العرب أنه اذا ما أريد بالفعل المبالغة فى معناه أخرج عن معتاد حاله من التصرف فمنعه - على حد تعبير ابن جنى (٣) .

فالاخراج عن معهود اللفظ مشير الى الاخراج عن معهود حاله فى الدلالة ، ومن ثم لما خرجت « عسى » عن معهود حال الأفعال من التصرف

---

(١) ينظر مواهب الفتاح لأبى يعقوب ٢/٢٧ ، وتقرير الانبابى على السعد والتجريد ٢/٣٣٧ ، ٣٤٢ .

(٢) لعل وعسى ومواقع كل منهما فى القرآن الكريم بحاجة الى دراسة تعتمد على الاستقصاء والرصد الكامل والموازنة بين الآيات وسباقاتها ... الخ وذلك ما أعد العدة له طالبا من الله العون ، وما أذكره هنا مجرد ملاحظة قابلة للرد اذكرها هنا لتحتك بعقول وقلوب صفوة ناقدة .

(٣) راجع الخصائص لابن جنى ٣/٣٦ تحقيق محمد على النجار .

خرجت عن معهود الدلالة على الرجاء بالمبالغـــة فيه ، فدلالتها عليه أبلغ وأعظم من دلالة غيرها عليه ، والجمهــور البلاغيين موقف يشـــبه هذا مع « هل » (١) ·

ولما كانت « عسى » أكثر مبالغة فى الدلالة على الرجاء كان من التناسب أن يكون خبرها مضارعا مسبوقا بأن المصدرية ، وليس شك فى أن المضارع مع « ان » المصدرية يخرج عن معهود حال الفعل الصريح من حيث الدلالة على الحدث ، فكان كل من «عسى» وخبرها أكثر مبالغة من «لعل» وخبرها فى الدلالة ، وكل منهما حيث ورد فى سياقه بالغ درجة الاعجاز فى بلاغته بغير تفاوت ·

أما الحال الذى اقتضى الاتيان بعسى مع الذين آمنوا فمرجعه الى أن هذا الابلاغ هو ضرب من التأكيـــد الذى هم أحوج اليه من الذين هم فى المستوى الأعلى « المؤمنون » حقا لهم على ايقاع ما أمروا به من توبة نصوح ، ومن كان أقل يقينا كان أشد احتياجا الى توكيد وتوثيق وابلاغ ، فكان الرجاء هنا غيره مع المؤمنين حيث لم تخرج « لعل » عن معهود حالها لفظا ودلالة ، وجاء خبرها مضارعا صريحا غير خارج عن حاله لأن فى هذا أيضا ضربا من التناسب بديعا مع طبيعة وكنه الحدث فى المضـــارع المخبر به « تفلحون » فان للفلاح لذة ، وثبات اللذة يقتل حرارة ادراكها والتمتع بها · فالتجدد أعون على التمتع باللذة من ثبوتها وقرارها · ومن ثم عبر بلعل مناداة على وثوقهم وقرار الايمان فى قلوبهم ، وعبر بالمضارع فى

---

(٢) للبلاغيين موقف مع قوله تعالى « فهل أنتم مسلمون » قرروا فيه أن ما عليه نظم هذه الآية أبلغ من قولنا فهل أنتم تســـلمون ، أو فهل تسلمون أو أفأنتم مسلمون أو أفأنتم تسلمون او أفتسلمون » يعتمدون فيه على فكرة الخروج عن معهود الحال · راجع المفتاح للسكاكى ص ١٤٨ والمطول ص ٢٣١ ، وعروس الأفراح جـ ٢ ص ٢٦٩ ·

خبرها اشارة الى تجدد لذة الفلاح لهم فى الدنيا والآخرة (١) .

ه ترتيب الصفات

اذا شئنا أن نلمح وجها من جمال ترتيب صفات متعددة لموصـــوف واحد فى ضوء ه الموصـوف فى مقام القرب فانا نحـــاول أن نتدبر قوله تعالى :

« قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا اننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنـــا ، وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين ، والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » (آل عمران ١٥ - ١٧) .

فى هذه الآية خمس صفات عطف بعضها على بعض بالواو ، ورتبت على نهج خاص ، فهل من وراء هذا معان وأسرار ولطائف ؟

الزمخشرى وجمال الترتيب بينها :

لا ترى الزمخشرى (٥٣٨ هـ) امام التفسير البيانى فى كشافه يشير الى شىء من جمال ترتيب هذه الصفات وان أشار الى وجه عطفهـــا بالواو (٢) كما سيأتى ان شاء الله تعالى .

رؤية البيضاوى لجمال الترتيب :

الامام البيضاوى (٦٩١ هـ) يذهب الى أن هـــذا الترتيب « حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب . فان معاملته مع الله - سبحانه وتعالى - اما توسل ، واما طلب .

---

(١) ما قلته فى لعل وخبرها اجتهاد شخصى أرجو أن يكون موضع النقد الحصيف .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤١٧ .

والتوسل اما بالنفس ، وهو منعهـا عن الرذائل ، وحبسـها على الفضائل . والصبر يشملها .

واما بالبدن ، وهو اما قولى وهو الصدق . واما فعلى وهو القنوت الذى هو ملازمته الطاعة .

واما بالمال ، وهو الانفاق فى سبيل الخير .

وأما الطلب ، فالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها » (١) .

ما قاله الامام البيضاوى قائم على الحصر والتقسيم العقلى لمقامات السالك ، أبرز فيه وجه التقسيم والحصر ، أما وجه الترتيب ، فهو لم لم يبرزه ، وان كنت لن تضل فى طلبه من كلامه ، حيث يبدو منه أنه قدم مقامات التوسل على مقام الطلب « اياك نعبد واياك نستعين » (الفاتحة ٥) وتقدم مقام التوسل بالنفس « الصبر » لأنه رأس كل فضيلة ، وبغيره لا تحقق لمقام من المقامات الأخرى ، ثم قدم التوسل بالبدن على التوسل بالمال ، فهو أعم وأشمل وأقسى تحقيقا حين تتفتح زهرة الحياة الدنيا ، وقدم من البدنى ما كان قوليا « الصدق » لأنه اس ما كان فعليا « القنوت » ولا يكون الا به . ثم ختم بالتوسل المالى الذى لا يخلص ، ويصفو فيه الا الصفوة .

وبعد تحقق مقامات التوسل المتعددة يكون مقام الطلب « الاستغفار بالأسحار » ، فيؤتى أكله .

ذلك ما تمكن ملاحظته فيما ذهب اليه الامام البيضاوى ، وهو عندى أدق وألطف مما ذهب اليه الامام أبو حيان (٧٥٤ هـ) .

---

(١) أنوار التنزيل جـ ٣ ص ١٢ «على هامش حاشية الشهاب الخفاجى»

رؤية أبي حيان لجمال الترتيب :

يذهب الامام أبو حيان في بحره المحيط الى أنه « لما ذكر الايمان بالقول أخبر بالوصف الدال على حبس النفس على ما هو شاق عليها من التكاليف ، فصبروا على أداء الطاعة ، وعن اجتناب المحارم ، ثم بالوصف الدال على مطابقة الاعتقاد في القلب للفظ الناطق به اللسان ، فهم صادقون فيما أخبروا به من قولهم « ربنا اننا آمنا » وفي جميع ما يخبرون · وقيل هم الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم في السر والعلانية ، وهذا راجع للقول الذي قبله ، ثم بوصف القنوت ··· ثم بوصف الانفاق ، لأن ما تقدم هو من الأوصاف التي نفعها مقتصر على المتصف بها لا يتعدى ، فأتى في هذا بالوصف المتعدى الى غيره ، وهو الانفاق ·· ولما ذكر أنهم رتبوا طلب المغفرة على الايمان الذي هو أصل التقوى أخبر أيضا عنهم أنهم عند اتصافهم بهذه الأوصاف الشريفة هم مستغفرون بالأسحار ، فليسوا يرون اتصافهم بهذه الأوصاف الشريفة مما يسقط عنهم طلب المغفرة » (١) ·

فيما قال أبو حيان ما يشير الى علاقة بعض الصفات الخمس ببعضها ولا سيما ختمها بالاستغفار بالأسحار وتقديم ما هو خاص بالمتصف وارادفه بالمتعدى الى غيره ، وفي هذا فهم لترتيب الصفات على وفق مقتضى التسلسل العقلي بغض النظر عن المتصف بها ودرجته في مقامات القرب ، فهو ترتيب غير وثيق الاختصاص بالذين اتقوا ·

رؤية البقاعي لجمال الترتيب :

الامام البقاعي (٨٨٥ هـ) يريد أن يبرز وجه كونها خمس صفات ،

---

(١) البحر المحيط جـ ٢ ص ٤٠٠ · طبعة سنة ١٤٠٣ هـ دار الفكر بيروت ·

وعلاقة ذلك بدعائم الاسلام الخمس التى حددها الهادى البشير - صلى الله عليه وسلم فى قوله :

« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة . وايتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » . « متفق عليه واللفظ للبخارى » (١) .

فيقول : « لعله سبحانه - أشار بهذه الصفات الخمس المتعاطفة الى دعائم الاسلام الخمس ، فأشار بالصبر الى الايمان (٢) ، وبالصدق الى الزكاة المصدقة لدعواه (٣) ، وبالقنوت الذى مدار مادته على الاخلاص فى الصلاة التى هى المراقبة (٤) ، وبالانفاق الى الحج الذى هو أعظم مقوماته

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الايمان - باب بنى الاسلام على خمس ، وصحيح مسلم كتاب الايمان - باب أركان الاسلام .

(٢) وجه اشارة الصبر الى الايمان - عندى - أن الشهادة المعبر عنها فى الحديث النبوى ، هى فى جوهرها التصديق المطمئن لاعتماده على أوثق وأقوى وسائل الادراك والعلم « المشاهدة » سواء كانت مشاهدة بعين الرأس أو بعيون القلب ، وهى المرادة هنا ، فالشهادة الكاملة الحقة هى جوهر الايمان وحقيقته ، لأن استخدام القرآن لكلمة الايمان يجعلها متضمنة معنى التصديق والاطمئنان ، وكانت صفة الصبر مشيرة الى الشهادة التى هى جوهر الايمان لقوله - صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الايمان » « حديث حسن الاسناد كما قال العراقى تعليقا على احياء علوم الدين (٢٣١/١) للغزالى « كتاب أسرار الصوم » .

(١) ومن ثم أطلق على الزكاة فى القرآن الكريم صدقة كما فى قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء ... » الآية (التوبة ٦٠)

(٢) القنوت فى لغة العرب « الطاعة ، والسكوت ، والدعاء ، والقيام فى الصلاة والامساك عن الكلام ، والتواضع لله تعالى » (القاموس المحيط - قنت » .

وكل هذه المعانى لا تجتمع على حقيقتها فى شىء كاجتماعها فى الصلاة ، ولا سيما اذا كانت صلاة من ارتقى الى مقام التقوى ، فصفة القنوت اذن هى جوهر الصلاة وروحها ، « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » (الزمر ٩) .

المال (١) وبالاستغفار الى الصيام الذى مبناه التخلى من أحوال البشر ، والتحلى بحلية الملك (٢) ، لا سيما فى القيام فى السحر » (٣) .

وبعد ما أبان عن وجه اشارة كل صفة من صفات الذين اتقوا الى دعامة من دعائم الاسلام الخمس ، يبرز وجها من وجوه ترتيبها على هذا النهج وعلاقة كل صفة بما قبلها فيقول :

« سر ترتيبها أنه لما ذكر ما بين العبد والخالق فى التوحيد الذى هو العدل ، أتبعه ما بينه وبين الخلائق فى الاحسان ، ولما ذكر عبادة البدن مجردة عن عبادة المال ذكر عبادة ظاهرة مركبة منهما شعارها تعرية الظاهر ، ثم اتبعه عبادة بدنية خفية عمادها تعرية الباطن ، فختم بمثل ما بدأ به ، وهو ما لا يطلع عليه حق الاطلاع الا الله تعالى » (٤) .

ما ذكره الامام البقاعى اقامه على نهج الترتيب التصاعدى المشير الى النمو الداخلى للمعنى ، ثم على نهج التعانق الثنائى بين الصفات بمعنى أنه أبرز التقابل التكاملى بين الصفة الأولى والثانية : الأولى احسان الوفاء بحق

---

(١) وذلك أن من كان ذا اقتدار مالى فان بقية المعيقات يمكنه اجتيازها سواء كانت صحية أو امنية .

(٢) لا شك أن أول أحوال البشر النوم ثم الأكل ، ولا شك أن المستغفر بالأسحار والصائم متخل عنها متحل بحلية الملك « لا تأخذه سنة ولا نوم » (البقرة ٢٥٥) ، « وهو يطعم ولا يطعم » (الانعام ١٤) وفى هذا اشارة أيضا الى وجه من وجوه اختصاص الصوم بأنه له : « كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به » متفق عليه واللفظ لمسلم كتاب الصوم باب فضل الصيام - فى الصحيحين .

(٣) نظم الدرر ... للبقاعى ج ١ ق ٢٨٢ مخطوط رقم ٢١٣ تفسير دار الكتب .

(٤) الموضع السابق نفسه .

الله عز وعلا ، والثانية احسان الوفاء بحق الخلق . والأولى معنـوية خفية والثانية حسية ظاهرة ثم تأتى الثالثة فكانت عبادة بدنية فتكتمل العبادات قلبية - مالية - بدنية . ولما كانت الأولى « القلبية » سارية فى كل من المالية والبدنية ، جاءت الرابعة مركبة من الثانية والثالثة ، فكانت مالية بدنية مع سريان القلبية فيها أيضا سريان الروح فى الجسد ، ثم تقابلت الخامسة والرابعة كما تقابلت الثانيـــة مع الأولى ، فالرابعة قائمة على تجريد الظاهر بالاحرام ، والخامسة قائمة على تجريد الباطن بالامساك عن الشهوات كما أن الرابعة جلية ظاهرة والخامسة سر خفى . ويلتقيان فى أن كلتيهما تنتهى بيوم عيد ومغفرة .

ثم يشير البقاعى الى اعتلاق الخامسة بالأولى حيث أن كلا منهما خفى

لا يطلع عليه الا الحق عز وعلا ، فالايمان ، والصيام سر بين العبد وربه . فهو كما ترى بعد أن جلى الترتيب التصاعدى والتعانق التكاملى الثنائى بين الصفات أشار الى اعتلاق الاخيرة فقط بالأولى . غير أن لى فيها وجهـا آخر يكمل ما ذهب اليه البقاعى .

رؤيتى لجمال ترتيب هذه الصفات :

أذهب الى أن ترتيب هذه الصفات يقوم أساسا على نهج التشـكيل الدائرى الذى لا يدرى أين طرفاه : مبدؤه ومنتهاه . بمعنى أن المفارقة بين ترتيب الصفات فى الآية ، وترتيب ما اشارت اليه من دعائم الاسلام فى الحديث على رواية البخارى التى سجلناه أنفا تنحصر فى تأخير الصـــفة المشيرة الى الصلاة لتكون فى الآية الصفة الثالثة وهى بهذا كانت فى الاية فى موقع مركز الصفات . وهو المقام الذى يتناسب مع طبيعة الصفة ذاتها أولا ومع طبيعة ما تشير اليه من الدعائم « الصلاة » ثانيـا ومع طبيعـة الموصوف « الذين اتقوا » .

القنوت هو الطاعة والخشوع والخضوع لله تعالى ، وموطن هذا قلب العبد الذى هو مركزه ، فقلب كل شىء مركزه وذلك يتعانق مع كون الصلاة عمود الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، كما اخبر الصادق الأمين - صلى الله عليه وسلم . وكل هذا ايضا يتعانق مع مقام التقوى الذى ارتقى الموصوف بهذه الصفات الى المستوى الادنى منه « الذين اتقوا » فالهادى البشير - صلى الله عليه وسلم - اخبر « التقوى ههنا » ويشير الى صدره . وفق كل هذا أشار بوضع صفة القنوت فى مركز الصفات الى أنه يجب أن تكون حقيقة القنوت فى قلب كل صفة وفعل ، فبغيرها تكون الاشياء خواء .

اذا ما بدا شىء من جمال كون صفة القنوت مركزا لهذه الصفات فانا اذا تأملنا علاقة الصفة الأولى وما تشير اليه (الصابرين - الايمان) بالصفة الاخيرة وما تشير اليه (الاستغفار بالاسحار - الصيام) ألفينا فوق ما قاله البقاعى فيها - اعتلاقا وثيقا ، فالصيام نصف الصبر ، والصبر نصف الايمان كما اخبر الهادى البشير صلى الله عليه وسلم ، اضف اليه ان الصيام قائم على تحلية الباطن الحسى والمعنوى وتصفيته ، وذلك هو حقيقة الايمان أيضا ، فرب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش ، كذلك نضيف اليه انه لا يحرص على حقيقة الايمان واكتماله فيه ، ويستعذب تكاليفه الا الصابرون ، ومن ثم كان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأول فالأول ، ولا يحقق الاستغفار بالاسحار ويكثر منه ، ويحرص على كماله فيه الا من كان صابرا ، فالاعتلاق بين الصفة الاخيرة والاولى جد جلى ووثيق .

واذا تدبرنا علاقة الصفة الثانية وما تشير اليه (الصادقين - الزكاة) بالصفة الرابعة (المنفقين - الحج) ألفينا أن كلا منهما فيه نفع للذات والآخرين ، وكل منهما تطهير ونماء ، وكل منهما قائم على الاقتدار المالى ،

وأيضا على الانتقال والخروج من عرض من أعراض الدنيـــا ، وكل منهما عبادة حوفية . فالوشائج متعددة ، والاعتلاق جد وثيق ·

بدا أن منهج الترتيب بين هذه الصفات قائم على التشكيل الدائرى الذى أذهب الى أنه يكاد أن يكون السمة الغالبة على بناء الايات والسور فى القرآن الكريم · وذلك مجال رحيب بحاجة الى دراسة مستقلة مفصلة أعد العدة لها وأرجو الحق العون على اتمامها والاخلاص فيها لوجهه سبحانه ·

واذا تاملت ما قلته وما قاله الامام البقاعى الفيت ان ما ذهبت اليه انماء واكمال لما قاله الامام ، وأن ما قاله لا يصـــلح بدون ما أبديته من وثيق الاعتلاق على نهج التشكيل ، فضلا عن أنى حرصت على الاعتماد فى تدبرى على الحديث النبوى ، فالبقاعى بنهج الترتيب التصاعدى والتعانق الثنائى التكاملى بين الصفات ، ونحن بنهج التشكيل الدائرى لها نعطى تكاملا فان شئت أضفت اليهما ما سار عليه الامام البيضاوى والامام أبو حيان فان كل وجه مما قالاه وما قلناه وما يقوله غيرنا لا يتناقض مع الأخر بل كل منها وجه من وجوه جوهرة ذات ألوان متعددة . يختلف الوصف باختلاف موقع الواصف منها . وذلك شأن البلاغة المبدعة فكيف بالبلاغة المعجزة التى لا يخلق عطاؤها على كثرة الرد ؟

اما وجه مخالفة ترتيب الصفات لترتيب الدعائم فى الحديث النبوى ، فهو فيما أعلم ــ راجع الى طبيعة الموصوف فى الآية « الذين اتقوا » فالآية قد جاءت فى معرض التزهيد فى زينة الحيـــاة الدنيا حتى لا يتهـاوى تحت سلطانها اتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم · ولا يسمو الى مقام الزهد الاكمل فيها ظاهرا وباطنا الا من استطاع أن يدع مالا بأس به حذرا من الوقوع فيما به بأس ·

ان ذلك لمن ارتقى الى مقام التقوى الذى رسم حدوده المصطفى صلى

الله عليه وسلم ـ كما سبق تبيانه ، ـ لمن ارتقى الى ذلك بعدما حقق دعائم الاسلام بصبره عليها فيكمل فيها . ومثله لا يكون وجود الصفات (الدعائم) فيه بعد رقيه الى التقوى وجوداً على نهج التدرج والتصاعد وحده ، وانما على سبيل الاكتمال الدائرى الذى تسبح فيه الصفات فى حركة دائرية لا تخمد .

اما الحديث النبوى ، فان ترتيب الدعائم فيه منظور فيه الى مكانة كل فى اقامة بناء الاسلام ، وفى تحقيق المقام الأول من مقامات القرب ، بمعنى أن كل واحدة من الدعائم فى الحديث هى أقوى مكانة مما بعدها ، واشتمل فرضا فى الامة منها :

فرق بين الترتيب فى الحديث النبوى والترتيب فى الآية المذكورة . الترتيب فيها منظور فيه الى طبيعة كل صفة والى طبيعة الموصوف والسياق الذى جاءت فيه ، ومن ثم فانى ذاهب الى أن ما فى الآية من ترتيب لايستقيم الا مع عطف الصفات بالواو بحيث لو عطفت بالفاء، أو ثم لكان ذلك غير متسق مع النهج الذى بنى عليه ترتيبها فى الآية .

الواو حين ترد بين متعاطفين ، لا تكسبهما ترتيبا وفى الوقت ذاته لا يليق تقديم ما أخر أو تأخير ما قدم متى تخدر فى سياق محرر محكم البناء ، أما الفاء وثم فان كل واحدة تدل على مابين المتعاطفين من ترتيب متعاقب او متراخ زمانيا او رتبيا .

الترتيب الذى معنا فى الآية كان من ذات المعطوفات لا من اداة العطف ومن ثم اتاح لها الحركة الدائرية التى لا يستقر فيها عنصر فى مكانه ، فلا يعطيه تقدمه فى الذكر فضلا على غيره المؤخر فى تحققه فيمن اتصف به ، بل الجميع على درجة سواء فى التحقق والكمال .

نقه عطف الصفات المتعددة لموصوف واحد بالواو وتركه :

اذا كنت قد أشرت الى شيء من جمال ترتيب الصفات المتعددة لموصوف واحد فى ضوء مقامات القرب فى آية آل عمران رقم (١٧) فانى هنا أتدبر وجه عطف هذه الصفات ذاتها فى منظور عدم عطف الصفات المتعددة لموصوف واحد فى سورة التوبة ٠

اذا عدنا الى طبيعة اللغة التى نزل بها القرآن الكريم ، وواقع استخدام المبدعين من أهلها فاننا نرى كما يقول الامام ابو الحسن الحرالى (٦٣٧ هـ) « العرب تعطف الصفات اذا اكتملت ، وتتبع بعضها بعضا اذا تركبت والتأمت ، يعنى مثل : « الرمان حلو حامض » أى من غير صادق الحلاوة والحموضة » (١) ٠

فالحلاوة غير كاملة فى الرمان ، وكذلك الحموضة ، كان التقاؤهما فيه التقاء تفاعل أثمر طعما آخر وصفة أخرى ، وكان تعبير العرب عن التقاء الصفتين :الحلاوة والحموضة ، كصفتين متقابلتين ، من غير عطف بالواو ٠

فالواو اذن حين تكون بين صفات متعددة لموصوف واحد تعطى اكتمالها فى الموصوف ، وحين لا تكون تعطى ان الصفات قد اجتمعت فصارت كالصفة الواحدة ٠

امام المفسرين البلاغيين : الزمخشرى صرح فى هذه الآية بنحو ذلك فقال « الواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها »(٢) وقد تبعه البيضاوى (٣) ، وهما قد جعلا الكمال للموصوف فى الصفة ،

---

١) نظم الدر للبقاعى ج ١ ق ٢٨٢ « مخطوط »
(٢) الكشاف للزمخشرى ج ١ ص ٤١٧
(٣) انوار التنزيل للبيضاوى ج ٣ ص ١٢

بينما الحرالى جعل الكمال للصفة فى الموصوف ، وعلى اى فان الشيخ أبا حيان ذهب الى أنها « عطفت بالواو ولم تتبع دون عطف لتباين كل صفة من صفة ، اذ ليست فى معنى واحد ، فينزل تغاير الصفات وتباينها منزلة تغاير الذوات ، فعطفت » (١) وشيء مثله عند البهاء السبكى (٢) ، وابى يعقوب المغربى (١١١٠ هـ) فى مواهب الفتاح (٣) والمرحوم سليمان نوار فى مذكراته فى الفصل والوصل (٤) بل ان ابا حيان ليصرح برفضه ما ذهب اليه الزمخشرى قائلا « ... ولا نعلم العطف فى الصفة بالواو يدل على الكمال » (٥) على الرغم ان ما رفضه ابو حيان هو المتسق مع طبيعة الموصوف ، وجوهر سورة آل عمران ، بمعنى ان دلالة الواو على اكتمالهم فى كل صفة تلتقى مع حقيقة الذين اتقوا لانهم هم الذين كملت فيهم دعائم الاسلام ، وحققوا الايمان بحيث صار صفة من صفاتهم وتجاوزوا مقام « اولئك هم المؤمنون حقا » الى مقام التقوى ودلالة الواو على الاكتمال فى الصفة تحمل فى تجاويفها الدلالة على اجتماع هذه الصفات فيهم فهم لا يكملون فى واحدة الا بعد تحقق اجتماعها فيهم . فالواو وان كانت « تعرى من معنى الجمع (٦) الا أنها بين الصفات المتعددة لموصوف واحد تبرز فيها الدلالة على الاكتمال فى الصدارة ، لان الاكتمال فى الصفة هو الرئيس المراد ابرازه فيهم ، وهو المتناغم مع طبيعة من تجاوز مقام الايمان الحق الى مقام التقوى والورع ، ومن ثم « لما كان سن التقوى

---

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٤٠٠
(٣) مواهب الفتاح ج ٣ ص ٧
(٣) مواهب الفتاح ج ٣ ص ٧
(٢) عروس الأفراح ج ٣ ص ١١٤
(٤) مذكرات فى الفصل والوصل ص ٤١
(٥) البحر المحيط ج ٢ ص ٤٠٠
(٦) شرح المفصل لابن يعيش ج ٨ ص ٩٠

فوق سن الايمان عطفا امداحهم كلها بالواو ايذانا بكمالهم فى كل وصف وتمكنهم فى كل » (١) ٠

كما أنه هو المتناغم مع السورة التى تحدرت فيها هذه الايات وهى سورة « آل عمران » اى السورة التى سميت باسم من اصطفاهم الحق على العالمين ، واصطفاؤهم يبرز صفة الكمال فيهم حتى كانت منهم من منحت درجة الكمال ، كما اخبر الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم : « ... كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران ، وآسيه امرأة فرعون » رواه البخارى (٢) بل انها ارتقت الى رتبة الصديقة (وأمه صديقة ..) (المائدة/٧٥) ، وذلك كله يتناغم مع طبيعة دلالة الواو بين صفات الذين اتقوا على نحو ما سبقت الاشارة اليه ٠

تماما لما سبق نتدبر الوجه الجمالى لترك الواو بين بعض صفات متعددة لموصوف واحد واتيانها بين بعض آخر ، وذلك فى سورة التوبة حيث يقول الحق : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » (التوبة ـ ١١١ ـ ١١٢) ٠

نلحظ أن الآية (١١٢) قد جاء فى صدرها مجموعة من صفات مترادفة وهى ست صفات ، وفى عجزها ثلاث صفات بينها الواو العاطفة ، وتلحظ

---

(١) نظم الدرر للبقاعى ج ١ ص ٢٨٢ مخطوط ٠

(٢) صحيح البخارى : كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى : اذ قالت الملائكة يامريم ..

ان الموصوف بها كلها هم المؤمنون حيث تحدرت فى سياق الحديث عن اشتراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وختمت بأمر المصطفى صلى الله عليه وسلم بتبشيرهم واذا اردنا موقف امام التفسير البيانى للقرآن الكريم : جار الله الزمخشرى نجده فى هذا يكتفى بقوله : « أى التأبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال » (١) ، فهو بشير بقوله « الجامعون .. » الى ان ترك العطف بين الصفات الست الأولى كان للدلالة على جمعهم لهذه اصفات ، وكأنها صفة واحدة ، ثم لا يعلق على العطف فى الصفات الثلاث فى عجز الآية ، ولعله اكتفى بما أشار اليه فى موطن سبق فى كشافه من أن « الواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة فيها » وقد سبقت الاشارة اليه هنا غير ان البيضاوى ، وان نقل عبارة الزمخشرى فى توجيه ترك العطف فى صدر الصفات الا انه لما جاء الى التوجيه للعطف فى آخر الصفات قال « والناهون عن المنكر » عن الشرك والمعاصى والعاطف فيه للدلالة على انه بما عطف عليه فى حكم خصلة واحدة كانه قال الجامعون بين الوصفين ، وفى قوله تعالى « « والحافظون لحدود الله » اى فيما بينه وعينه من الحقائق للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل ، وهذا مجملها .. » (٢) .

وما قاله البيضاوى يمكن الاعتراض عليه بانه ذهب فى ترك الواو اولا تبعا للزمخشرى الى انه للدلالة على الجمع ، وفى الاتيان بها هنا الى الدلالة نفسها . بيد أنه يمكن دفع الاعتراض بأن الصفات آخرا متقابلة وهى أولا غير متقابلة ، وكأنى بالبيضاوى يذهب الى أن دلالة ترك الواو بين الصفات غير المتقابلة لموصوف واحد هى دلالة مجيئها بين صفات متقابلة لموصوف واحد ، وذلك وان كان له وجه من الحسن الا انه لا يقيم معيارا

---

(١) الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٢١٦

(٢) انوار التنزيل للبيضاوى ج ٤ ص ٢٨٦ .

دقيقا مطردا . ولذا لجأ الى القول بأن الواو العاطفة لقوله « الحافظون لحدود الله » عاطفة مجملا على مفصل .

وذهب الامام البهاء السبكي الى أنه « لما كان الأمر بالمعروف ملازما للنهي عن المنكر وعكسه عطف عليه ليكونا صفتين مستقلتين بالفصل بخلاف ما قبله ، فانه لا يتوهم ان أمرين منهما صفة واحدة » (١) ومن قبله ذهب ابن الزملكاني الى انه « عطف النهي على الأمر لان النهي يراد به منع الفعل وابقاؤه على العدم والأمر يراد به ايجاد الفعل ، والعدم والوجود متضادان لا يجتمعان » (٢) وكذلك ذهب العلـــــوي الى أن وجه مجيء الواو بين « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر » هو التضاد بين الصفتين » (٣) ومثل ما ذهب اليه السبكي ذهب الشيخ الطاهر بن عاشـــور (٤) وما ذهب اليه ابن الزملكاني والعلوي ليس هو الوجه المرضي عندي ذلك أن التقابل لا يصلح معيارا للعطف . والا فان الحق يقول « اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة » (الواقعة / ١ ـ ٣) بل انه قال في الآية نفسها (الراكعون الساجدون) ، وكذلك امرؤ القيس يقول :

مكر مفر مقبـــل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

فانظر كيف ان أمير الكلمة الشاعرة ابرز دلالة تتابع الصفات المتقابلة بقوله (معا) وبالتشبيه بجلمود صخر حطه السيل من عل .

الذي اذهب اليه انا أن ترك الواو بين الصفات الست الاولى ومجيئها بين الصفات الثلاث الاخيرة، مرده الى طبيعة الموصوف بها ،ودرجته في مقامات القرب

---

(١) عروس الافراح ج ٣ ص ١١٤
(٢) التبيان ص ١٣٠ طبعة ١٣٨٣ هـ بغداد
(٣) الطراز ج ٢ ص ٣٥
(٤) التحرير والتنوير ج ١١ ص ٤١

بمعنى أن الموصوف بهذه الصفات هم « المؤمنون » وهم دون الموصوف في آية آل عمران السابق ذكرها ، ومن ثم كان الموصوف هنا ليس على مستوى اكتماله في الصفات الست الأولى لانه لايكمل فيها الا من اجتاز مقام الايمان الحق الى مقام التقوى واولئك ما يزالون مقيمين في مقام الايمان فهي تجتمع فيهم على غير اكتمال « فاعلم - سبحانه - ان المراد فيما تقدم من الاوصاف الاتيان بما امكن منها فاتى بها اتباعا دون عطف لذلك واشار الى ان الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والوقوف عند الحدود لا يقع منه الا بالتمام ، لان المقصر في شيء من ذلك ، اما راض بهدم الدين ، واما هادم بنفسه ، فيجب التجرد التام منه لان النهي اصعب اقسام العبادة لانه متعلق بالغير وهو مثير للغضب .. فربما كان عنه ضرب وقتل ، فلذلك عطفها ولم يتبعها » (١) فلو انه عطف الست الأولى كما عطف ما بعدها لاشار بهذا الى ان المراد الاتيان بها على وجه الكمال وان اشتراه الله الأنفس لن يكون الا ممن اكتمل في هذه الصفات الست ، وليس المقام لذلك اما الثلاث الأخرى فهي لا تقبل ابدا الا اذا كانت كاملة لان نقصها - على الأقل - يوحي بالرضا بضدها وذلك قدح في العقيدة وروحها ، أضف اليه ان الثلاث الاخيرة متعلقة بغيرهم . وما كان كذلك كان المتصف به بحاجة الى الاكتمال فيه كيفما يتسنى له ايقاعه لصعوبته .

وبهذا ننتهي الى أن عطف الصفات المتعددة لموصوف واحد من الخلق يدل على اكتماله في كل صفة بغض النظر عن كونها متقابلة ، أو غير متقابلة وترك عطفها يدل على اجتماعها فيه على غير اكتمال وانما هي تجتمع كأنها صفة واحدة بغض الطرف عن كونها متقابلة أو غير متقابلة وان العطف وتركه يتحكم فيه طبيعة الموصوف وسياقه .

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ج ٢ ق ٣٤٨ « مخطوط »

فقه الافراد والجمع والتشبيه :

من المواطن التى تبرز فيها المفارقات الأسلوبية نظرا الى طبيعة المتحدث عنهم ، ودرجة كل فى مقامات القرب قوله تعالى : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » (آل عمران - ١٣٣) .

وقوله تعالى : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (الحديد - ٢١) .

تلحظ أنه فى آية آل عمران . عبر بالمسارعة ، وجعل الجنة عرضها السموات ، جامعا للسموات بغير تشبيه ، بينما آية الحديد عبر فيها بالمسابقة ، وجعل الجنة عرضها ، كعرض السماء والأرض ، مفردا للسماء ذاكرا كاف التشبيه . هذه الفروق التعبيرية تلمح بعض سرارها الجمالية حين تلاحظ من أعدت له الجنة فى كل آية ، ودرجته فى مقامات القرب .

آية آل عمران ختمت بقوله : « أعدت للمتقين » وآية الحديد . قال فيها . « أعدت للذين أمنوا .. » وفرق جد شاسع بين من كان فى المستوى الأول من مقام الايمان ، ومن كان فى المستوى الأعلى من مقام التقوى ، ولاريب فى أن المسارعة المعبر بها فى آية آل عمران أدل على العناية والحرص على البلوغ قبل الآخرين ، فهى مفعمة بالتلهف وترسم صورة المتقين وكل واحد منهم يحاول الاسراع الى أحضان هذه الفقرة وهذه الجنة ، وذلك أليق باهل الكمال أما المسابقة فانها لا تدل على أكثر من السعى الى المغفرة الاستباق الى الجنة دون تصوير لدرجة السعى . فكل سعى بين طرفين استباق وان كان فى غاية البطء .

فمن كان فى أرقى مقامات القرب كان من الحتم أن يكون ما أعد له من الجنان أسمى مما أعدد لمن دونه فى مقامات القرب ، ومن ثم كان عرض الجنة المعدة للمتقين السموات السبع والارض ، بينما الجنـة المعدة لمن دونهم بكثير « الذين آمنوا » عرضها كعرض السماء والأرض ، فالجمع فى السموات فى آية آل عمران المناظر للافراد فى آية الحديد يعطى رحابة جنة المتقين رحابة تعجز عن ادراك مداها كل مقاييس البشر ، وذلك يسمو أيضا على قدرات كاف التشبيه التى جاءت فى جنة الذين آمنوا فى سورة الحديد .

من خلال النظر الى طبيعة من تتحدث عنهم الآية المتحدرة فى سياق سورة أهل الكمال والتقى « آل عمران » ، وهو سياق يصف المتقين بأنهم الذين ينفقون فى السراء والضراء (ى - ١٣٤) وسياق آية الحديد يركز على الأمر بالايمان ، والانفاق مما استخلفهم الله فيه (الحديد - ٧) والحث على أقراض الله قرضا حسنا فى أسلوب استفهام مفعم بالاثارة والالهاب (ى - ١١) .

من خلال النظر المتأمل فى كل هذا ندرك شيئا من سرائر الجمال الأسلوبى للمفارقات التعبيرية بين الآيتين ، ولعل وقفتنا التأملية فى قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا ، وعقبى الكافرين النار » (الرعد - ٣٥) .

تؤكد ما ذهبت اليه على أن النظرة العجلى تلحظ أن صدر الآية هنا يتحدث عن مثل وصفة الجنة التى وعد المتقون ، وبعد وصفها أشار اليها قائلا « تلك عقبى الذين اتقوا » وظاهر هذا ينقض ما ذهبت اليه من المفارقات التعبيرية فى ضوء المفارقة بين المستوى الروحى بين أفراد الأمة الاسلامية ، ذلك أن ظاهر الآية يدل على أن جنة المتقين هى هى جنة الذين اتقوا بدليل الاشارة « تلك عقبى الذين اتقوا » .

بيد أن النظرة المتدبرة ولا سيما لقوله (وعد) و (عقبى) ترد ذلك:

اللفظ الأول يعطى أن هذه الجنة الموصوفة هى ما وعد بها المتقون لكنها ليست هى عقبى المتقين ومنتهى جزائهم وأعلى مستوى يمكن أن يصل اليه من كانوا فى المستوى الأعلى من مقام التقـــوى . الذين كان القرآن هدى لهم ، وكانوا هم المفلحون •

هذه الجنة الموصوفة هنا هى أقل درجات الجنة بالنســبة للمتقين ، ولكنها ليست آخر ارتقاءاتهم فى فيوضات العطاء ، لكن الذين اتقـوا اى الذين ماتوا وهم فى المستوى الأدنى من مقام التقوى هذه الجنة الموصوفة هى أعلى منزلة يصل اليها رائدهم وسيدهم ، ومن كان مشارفا للولوج فى المستوى الأعلى من مقام التقوى ، فالجنة الموصوفة هنا تمثل أدنى درجات النعيم للمتقين وأعلى درجاته للذين اتقوا . وذلك يؤكد صدق ما ذهبت اليه

فتة تذكير المؤنث ••

اذا كان القرآن الكريم قد جاء بلسان عربى مبين كما صرح فى غير موطن (يوسف / ٢ ، النحل / ١٠٣ ، الشعراء / ١٩٥) فانه من الجلى أنه لم يخضع نظمه لكل القواعد التى كان ينسج على منوالها العرب أسلوبهم والتى صاغها النحاة فى قواعد وقوانين ، وانما نراه فى غير موطن يخرج على بعض هذه القواعد لأسرار جمالية وغيرها وذلك مجال فسيح خصب أرجو الحق اعانتى على افراده بدراسة جادة مستفيضة •

المهم هنا أنى اريد الى تقديم صورة من صور التعبير القرآنى التى لم تجر وفق ما تذهب اليه قواعد النظم فى لغة العرب ، ونحاول أن نتدبرها فى ضوء مقامات القرب ، هذه الصورة هى تذكر صفة المؤنث فى قوله تعالى

« ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين . ولاتفسـدوا فى الأرض بعد اصلاحها وادعوه خـوفا وطمعا ان رحمت الله قريب من المحسنين » (الاعراف - ٥٥ - ٥٦) .

« ما الحكمة فى تذكير قريب » مع أنه صفة مخبربها عن المؤنث وهو الرحمة مع ان الخبر الذى هذا شأنه يجب فيه التأنيث ، تقول هند كريمة وظريفة ، ولا يقال كريم ولا ظريف » ؟ على حـد تعبير جمـال الدين ابن هشام » (١) .

مثل هذا يسمى بالحمل على المعنى الذى هو ضرب من ضروب ما سمى بشجاعة العربية (٢) ، وهى تسمية ذات فقه ومعرفة ، سأفردها - ان شاء الله تعالى - بدارسة مفصلة .

هذه الآية قد لقيت عناية مشكورة من النحـاة ، فكتبت حولهـا الرسائل واقيمت فيها المناظرات، على نحو ما نراه من المناظرة التى حدثت بين ابن مالك وعصرييه مجد الدين الروذراوى (٣) ، تعـددت آراء النحاة كما قلت ، فرأينا جمال الدين بن هشام يذكر فيها أربعة عشر وجها ، منها قوى وضعيف ، وكل مأخوذ من قوله ومتـروك على حد تعبيره (٤) ، فذكر الآراء واعترض عليها كلها خلا الوجه السـادس ، فقد ذكره ولم يعترض عليه ، وهذا الوجه السادس هو :

---

(١) الاشباه والنظائر فى النحو للسيوطى ج ٣ ص ١٤٧
(٢) الجامع الكبير لابن الأثير ص ١٠٧ ، تحقيق مصطفى جواد - ط ١٣٧٥ بغداد .
(٣) الاشباه والنظائر فى النحو للسيوطى ج ٣ ص ١٣٦ - ١٤٧
(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٨

« ان فعيلا بمعنى فاعل » قد شـبه بفعيل بمعنى مفعول ، فيمنع من التاء فى المؤنث كما قد يشـبهون فعيلا بمعنى مفعول بفعيل بمعنى فاعل فيلحقونه بالتاء ، فالأول كقوله سبحانه « قال من يحيى العظام وهى رميم » ومنه « ان رحمة الله قريب من المحسنين » والثانى كقولهم خصلة ذميمة ، وصفة حميدة ، حملا على قولهم قبيحة وجميلة (١) .

هذا الوجه الذى عده ابن هشام سادسا ، ولم يعترض عليه ، وجعله جزء من وجه ملفق من وجوه ارتضاه فى آخر رسـالته (٢) ، هذا الوجه قد عده ابن مالك أول الوجـوه السـتة التى ذكرها فى الآية (٣) غير

ان العلامة مجد الدين الروذراوى قد فند هذا الوجه بما هو مبسـوط فى محله ، وكذلك فعل العـلامة ابن القيم الجوزية ، حيث أورد عليه ثلاثة اعتراضات كل منها قوى صناعة (٤) .

وعلى فرض التسليم الجدلى بصحته صناعة ، فانه ما يزال تحت طائل الاعتراض البلاغى القائل : ما الحال الذى اقتضى اجراء « فعيل » بمعنى « فاعل » مجرى « فعيل » بمعنى « مفعول » فى عدم لحاق التاء به ؟

الحق اننى نظرت فى الوجـوه التى أبداها العـلامة مجد الدين الروذرادى ، والعلامة ابن مالك وجمال الدين بن هشام ، وقد جمعها جميعا الامام السيوطى (٥) والوجوه التى جمعها ابن قيم الجوزية (٦) ونظرت فى

---

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٩
(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٥٣
(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٨
(٤) المرجع السابق ج٣ ص١٤٣ ، بدائع الغوان لابن القيم ج٣ ص٢٠
(٥) الاشباه والنظائر ج ٣ ص ١٣٦ - ١٥٣
(٦) بدائع الفوائد ج ٣ ص ١٨ - ٣٥ ، التفسير القيم ص ٢٥٩

كل وجه ، وما اثير من اعتراضات حوله واحدا واحدا ، فرأيت أن أقرب الوجوه الى السياق الذى تحددت فيه الآية هو الوجه الثانى من الوجوه التى أوردها ابن مالك فى الآية ، وعده ابن هشام الوجه الثانى عشر ، وعده ابن قيم الجوزية المسلك الثانى فى الآية •

هذا الوجه هو : « أنه من باب تأول المؤنث بمذكر موافق فى المعنى كقول الشاعر :

أرى رجـــلا منهم أســـيفا كأنما   يضم الى كشـــحيه كفا مخضـــبا

فتأول كفا ، وهو مؤنث بعضو ، فذكر صفته لذلك ، وكذلك الرحمة متأول بالاحسان ، فذكر خبرها ، وتأولها بالاحسان أولى من تأول الـــكف بالعضو لوجهين :

أحدهما : أن الرحمة قائم بالراحم ، والاحسان بر المرحوم ومعنى البر فى القرب اظهر منه الرحمة •

الثانى : أن ملاحظة الاحسان فى الرحمة بالقرب من المحسنين مقابلة للاحسان الذى تضمنه ذكر المحسنين ، فاعتبارها يزيد المعنى ، فصـــحت الأولوية ، ومن تأول المؤنث بمذكر ما أنشده الفراء •

وقائـــع فى مضر تســـعة   وفى وائـــل كانت العاشرة

فتأول الوقائع بأيام الحرب ، فلذلك ذكر العدد الجارى عليها ، فقال تسعة واذا جـــاز تأول المذكر بمؤنث فى قول من قـــال جاءته كتابى ، فاحتقرها ، أى صحيفتى ، وفى قول الشاعر •

يا أيهـــا الراكب المزجى مطيته   سائل بنى أسد ما هذه الصـــوت

أى الصيحة ، مع ما فى ذلك من حمل أصل على فرع فلأن يجوز تأويل مؤنث بمذكر لكونه حمل فرع على أصل أحق وأولى » ١ ٠

اعترض على هذا الوجه المجد آلروذراوى اعتراضات فندها الامام ابن قيم الجوزية بما يغنى عن بسطه (٢) والحق أن هذا الوجه كما قال ابن القيم وجيه :

وحسنه عندى كبلاغى أغدقه عليه اعتلاقه بالسياق الذى تحدثت فيه الآية ، وملاحظة صفة من تتحدث عنه الآية « المحسنين » ٠

بمعنى أن قوله تعالى « ان رحمت الله قريب من المحسنين » جاء فاصلة لآية تنهى عن الفساد فى الأرض وتأمر بدعاء الله من مقام الجمع بين الخوف والطمع « وادعوه خوفا وطمعا » والجمع بينهما هو الطريق المستقيم الى مقام الاحسان ، كما فسره المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فيما سبق من حديث ذكرناه ، ذلك أن الخوف فيه ابلاغ فى الاقرار بهيمنة الحق وقهره ، واعتراف بضعف الخلق وفى الطمع ابلاغ فى الاقرار بالعجز عن الوفاء بحقه تعالى » واستقصار للنفس عن استحقاق الفضل مع الاعتراف بفيض العطاء الربانى الأقدس ، فالجمع بين مقام الخوف والطمع ثمرة مشاهدة هيمنة جلال الألوهية ، ومشاهدة فيض جمال الربوبية ، فمن ذاقها غرق فى سبحات الله(٣) ، فكان من المحسنين ، فكان شديد القرب منه تصديقا لقوله تعالى فى حديثه القدسى « ٠٠ وان تقرب الى بشبر تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة » متفق عليه واللفظ للبخارى (٤) فأشار فى الآية

---

(١) الاشباه والنظائر ج ٣ ص ١٣٩ وبدائع الفوائد ج ٣ ص ٢١

(٢) بدائع الفوائد ج ٣ ص ٢٢ والتفسير القيم ص ٢٦٣

(٣) سبحات الله (بضمتين) انواره ٠ ينظر القاموس المحيط ٠

(٤) صحيح البخارى : كتاب التوحيد ـ باب ويحذركم الله نفسه ، وصحيح مسلم : كتاب الذكر والدعا، باب فضل الذكر ٠

بتذكير الصـــــفة الى شـــدة قرب رحمته من المحســــنين ، لأن التذكير دليل القوة والتأنيث دليـل الضـــعف ، والقرآن الكريم فى غير موطن أشار بالتذكير الى قوة ما جعله مذكرا ، على نحو ما تراه فى قوله تعالى فى قصة ثمود : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » (هود - ٦٧) فذكر الفعل (أخذ) وأنثه فى قصة مدين فى السورة ذاتها حيث يقول : « وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » (هود - ٩٤) ، فكان التذكير للفعل أخذ فى قصة ثمود متناسبا مع طبيعة قوم ثمـود الذين أخبر الحق عن قوتهم ، وأنهم جابوا الصخر بالواد ، وأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين وفارهين ، ومن كان كذلك ناسبه ان يكون أخذهم قويا ، فاشار اليه بتذكير الفعل معهم على الرغم من أن الفاعل غير حقيقى التأنيث وفصـل بينه وبين الفعل بفاصـــل ، وأشار بتأنيث الفعل فى قصة مدين تجاوبا مع ضعف مدين فى منظور ثمود

وكذلك ترى دلالة التذكير على القوة فى قوله تعالى « وما يدريك لعل الساعة قريب » (الشورى - ١٧) .

ويصور هذا القرب قوله صلى الله عليه وسلم : « بعثت انا والساعة كهاتين » وضم السبابة والوسطى » .

متفق عليه واللفظ لمسلم (١)

فالتذكير المشير الى القرب البالغ فى الآية يتجاوب مع المقام الذى ارتقى اليه المحسنون وهو مقام « ان تعبد الله كانك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » وعلى قدر الارتقاء فى مقامات انطـــاعة يكون القرب « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن - ٦٠) .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الرقاق - باب قوله بعثت انا والساعة كهاتين ،وصحيح مسلم : كتاب الفتن - باب قرب الساعة .

خاتمة الطواف :

وبعد فهذه دراسة تبرز محاولة للتدبر فى آيات الذكر الحكيم على نهج محـــمد الملامح فكان وعر المرتقى ، فان عطاءات القرآن الكريم لا تنال بفيض من علوم اللغة وحدها ، ولا بمعارف الأرض فحســـب ، وانما هى أحوج مع هذا كله الى خير زاد ، وخير زاد التقوى ، وتلك منزلة تنقطع دونها نياط ونياط . أنى لمثل الوصول اليها ؟

ومن ثم فانك واجد فى محاولتى هذه خطاها أكثر من صوابها لعدة اعتبارات أرجو أن يعنى الحق على اجتيازها ٠

من هذه الاعتبارات ان هذه الدراسة لاتزعم لنفسها انها قامت على الاستقصاء لاسلوب القرآن الكريم استقصاء كاملا فيما تناولته من ظواهر تعبيريه فيه ـ خلا اسلوب النداء ـ ومن ثم فانها لا تستطيع أن تزعم ـ مجرد زعم ـ ان ما ذهبت اليه من آراء هى نتائج علمية قائمة على الرصــــد الاكمل والموازنة والتحليل الشامل الكامل فى ضوء المعيار الذى تناولت عليه هذه الدراسة ٠

ولعله كان من الخير لهذه الدراســــة الا تخرج الآن ، غير أنى آثرت اخرجها ، وهى ما تزال فى مهادها عسى أن تحتك بعقول وقلوب خاصــــة الخاصــة من العلماء ، فيكشـــفون بفقههم زيفها وبهرجها الذى غشى على كاتبها ، أو يدلون على مخابىء الحسن فيها ـ ان يكن فيها ذلك ـ فيمنحه كاتبها نماء واكتمالا ٠

« وتعاونوا على البر والتقـــوى ، ولاتعاونوا على الأثم والعــدوان » (المائدة ـ ٢) ٠

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمسلمين ٠ والحمد لله رب العالمين ٠

دكتور محمود توفيق محمد سعد
المدرس بقسم البلاغة والنقد بالكلية